

الغولُ والصُّلوكُ  
تأبَّطَ شراً نموذجاً شعرياً

د. شریف بشیر احمد

تستذكر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي يستوقفك (تأبط شراً) بلقب  
وأنت تركب جملة تعصر السلبية والقتامة في الفعل والصفة؛ تحول به من  
السكونية إلى الحركية، ومن الصمت إلى المغالبة، ومن القبول والخنوع إلى الرفض  
والمواجهة، ومن الخفاء القميء إلى العلن الصاخب؛ بدالتين: دلالة مادية تشير إلى  
الشخص إشارة يفتخر بها؛ ودلالة معنوية يشعر معها الآخرون بالرهبة المرجفة؛ في سياق  
محاورة ذهنية بين ذاتين: ذات واعية تدرك دور الكائن في توجيه مفهوم اللقب بالحدث  
المكرر؛ وذات مكبوتة واهنة لا تعي وظيفة الفرد المتمرد الذي يمنح اللقب كينونة واقعية  
بشخصية لها القدرة على المجاهرة والمصاولة...

وتعرفُ أنْ (تأبَّطَ شراً) قد نشأ في بيئة مرهقة لشاعرٍ شرودٍ يعشقُ الحُرِّيَّةَ فكرةً ومنهجاً؛ ولا يستقرُّ على نسقٍ حياتيٍّ رتيبٍ الأنماط فخرجَ عن المنظومةِ القبليةِ التي تُشكِّلُ الفردَ برؤيةِ الجماعةِ؛ بقوةٍ جسديةٍ ونفسيةٍ، ووعيٍ شعريٍّ؛ لم ينسجمَ بهما مع الأعرافِ والنظمِ السوسيولوجيةِ؛ رغبةً منه في تحقيقِ ذاته ووجوده؛ ففارقَ القبليةَ التي سنتَ نظاماً هيكلياً لا تقبلُ المخالفةَ والمعارضةَ؛ فارقها إلى أعماقِ الصحراءِ حيثُ يعيشُ الوحشُ، ينتخبُ لنفسه مجتمعاً بديلاً يختاره بإرادته؛ ويتحررُ فيه من سُلْطويةِ الآخرِ، وتتفاعلُ فيه الذاتُ مع البيئةِ تفاعلاً يخلقُ عالماً تتداوَبُ فيه المتناقضاتُ:

يَبِيتُ بِمَغْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَفْنَهُ      وَيُصْبِحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعًا<sup>(1)</sup>  
وَأَيْنَ فَتَى لَا صَيْدٍ وَحْشٍ بِهِمْ      فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسًا لَصَافَحَهُ مَعًا  
وَتُرَدَّدُ قَوْلَيْنِ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُحَدِّدُ سَبَبًا أَنْتَجَ لِقَابَ (تَأَبَّطُ شَرًّا) نَعْرَضُهُمَا عَرْضًا تَحْلِيلِيًّا-

(1) شعر تآبط شراً، دراسة وتحقيق سليمان داود القرد غولي، وجبار تعبان جاسم ص 98-99.

حوارياً؛ لصلتهما بالقول:

- أولهما: أنه رأى كبشاً في الصحراء فاحتلمه تحت إبطه، فجعل يبول عليه طول طريقه. فلما قرب من الحبيّ ثقل عليه الكبش، فرمى به، فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول. فقالوا: تأبطت شراً، فلقب بذلك<sup>(1)</sup>. ويبدو أن فعل الرؤية البصرية قد تحقق من نوعية الحيوان في أثناء محاولته سبر أغوار الوجود الذي يقف خارج ذاته، وعالمه الطبيعي. ثم تدخل الراوي الشعبي، فحوّله من الكبش إلى الغولية رغبة منه في مواصلة السرد عبر فاعلية الفضاء، وتأثير الشخصية، والقول بالغول المحمول بعد سؤال عن الحدث؛ فيه نزعة تمويهية تميل إلى المبالغة في إثارة الدهشة.

- ثانيهما: أنه لقي الغول في ليلة ظلماء في موضع يقال له (رحى بطن) في بلاد هذيل. فلما أصبح حملها تحت إبطه، وجاء بها أصحابه فقالوا: لقد تأبطت شراً<sup>(2)</sup>. هل تصدق أن هذا اللقاء فعل مواجهة ومقابلة في سياق صراع بين كينونتين: كينونة تعقل؛ وكينونة حيوانية لا تعقل؛ وبين وجودين: وجود واع حقيقي تحركه رغبة التحرر، ووجود يحركه الجوع، وتسير به الغريزة؟ وهل تعتقد أن الغول حيوان أليف داجن، وأنه خفيف الوزن يحمل بعيداً كما تحمل العبابة، وأنه مبذول في ديار (هذيل) وأنه واهن الشكيمة، ضعيف النواجز؛ وأنه لا يوصف بالوحشية في الهجوم، وبالخرافة في الواقع؟ وإن كنت تصدق أن تأبط شراً قد قال:

ألا من مبلغ فتیان فهم  
بما لا قیت عند رخی بطن<sup>(3)</sup>  
بأنی قد لقی الغول تهوی  
بسهب كالص حيفة صخمان

أظن أن الخيال الشعري قد ضخّم الأشياء مُستدعياً حيواناً (خرافياً) يقبع في الذاكرة الشعبية للمجتمع الجاهلي بوصفه نموذجاً يُخوف به الكبار والصغار، أو يستمطرون الشر على أعدائهم وخصومهم بالدعاء عليهم به. وكأنني بالقولين السابقين يصنّران عن عقلية تمتن القص والحكاية، وتحترف الرواية؛ لتشكيل الحدث الشائق تشكيلاً تستسيغه ذائقة العوام، وتتنقّب بناء الوجود اللغوي للغول بتجسيد الوهم والتخيل تجسيدا واقعياً بالكلمات. وكأنني بالشاعر (تأبط شراً) يمتلك طاقة حيوية يستحوذ بها على الآخر (الغول) وإرادة الفعل التي تقرّر التغيير.

\*\*\*

وتلزم (الغول) ذهنية (تأبط شراً)، وتتسلط عليه، فإذا به يعتق بوجودها، فضخمها؛ وقدم لها صورة محاطة بنسيج هلامي يكشف ما كان يثيره القلق لصعلوك يمتطي الليالي المظلمة بين الأكام

<sup>(1)</sup> الأغاني للأصفهاني، ج 8 / ص 209.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ج 18، ص 209-210.

<sup>(3)</sup> شعر تأبط شراً، ص 172-173.





بَحْبَنَةُ السَّوْقِ فِي السُّلُوكِ وَالْفِكْرَةِ (طَالِبْتُهَا ← فَالْتَوْتُ). إِذْ نَلَحَظُ تَنَافُرًا صَمِيمًا بَيْنَ الْحَلَمِ وَالْوَاقِعِ، بَيْنَ الْغَيْبِيَّةِ وَالصَّحْوَةِ، بَيْنَ طُرُقِ الشُّكِّ وَالْيَقِينِ، لَأَنَّا أَمَامَ دَقِّقَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي لَمْ تَعْتَرِفْ بِالْفَوَارِقِ بَيْنَ الْكَائِنَاتِ. وَتَتَخَلَّلُ عِبَارَةٌ (مَا أَهْوَلًا) حِزْمَةً مِنَ التَّرَابِطَاتِ وَالتَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تَوْحَّدُ صَوْرَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ (لِلغُولِ) تَتَضَايِفَانِ فِي مَخِيلَةٍ (تَأْبِطُ شَرًّا):

\*الأولى: صورة (امرأة/ جارة) تَجَسَّدُ نَمُودَجًا جَمَالِيًّا، وَمَثَلًا لِلْجَسَدِ وَالْخُصُوبَةِ، يَتَخَلَّصُ الشَّاعِرُ بِهَا مِنْ مَتَاعِيهِ بِدَعَا وَاطْمَئِنَانٍ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ تَتَّصِلُ بِطُورِ الْفَنَاءِ وَالشَّبَابِ وَالْعَنُفَوَانِ؛ وَتَعُدُّ مَرَحَلَةً مِنْ مَرَاكِلِ النِّجَاةِ مِنَ الْقَلَقِ وَالْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ. مِمَّا يَجْعَلُ الرَّغْبَةَ الْقَارِيَّةَ فِي الْجَمَلَةِ الْفَعْلِيَّةِ (وَطَالِبْتُهَا بَضْعَهَا) ذَاتَ دَلَالَةٍ.

\*الثانية: صورة (الغول) العالقة فِي الْأَذْهَانِ بِوصفِهَا شَيْطَانِيَّةِ الصِّفَاتِ تَلْتَهُمْ عِظَامُ الْمَوْتَى، وَمُصَدِّرًا مِنْ مَصَادِرِ الْمَتَاهَةِ الْمَخِيفَةِ وَالشُّعُورِ بِالْهَلَاكِ وَالضِّيَاعِ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ تُصِيبُ الشَّاعِرَ بِالْفَزَعِ وَالْخَوْفِ وَالْحَيْرَةِ مِنْ كَرَاهَةِ الْمَنْظَرِ، وَغَائِلَةِ الطَّرِيقِ؛ فَيَدْرَأُ بِالْجَمَلَةِ الْفَعْلِيَّةِ (وَطَالِبْتُهَا بَضْعَهَا) عَنْ نَفْسِهِ أَغْوَالَ التَّفْرِيعِ، وَأَهْوَالَ الْمَوْقِفِ. وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ الْجَمَلَةُ الْمَتْرَامِيَّةُ الْأَطْرَافِ:

(تَهَوَّلَ وَجْهُ الْغُولِ فَاسْتَغُولَ)

أَوْ (تَغُولَ وَجْهُ الْغُولِ فَاسْتَغُولَ)

تَصْبِيحُ قُطْبًا مَحُورِيًّا تَدُورُ حَوْلَهُ سِيَاقَاتُ النَّصِّ الْمَتَنَاظِرَةِ وَالْمَتَنَاقِرَةِ، وَتَتَفَجَّرُ فِيهَا مَظَاهِرُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْخُصْبِ وَالْجَفَافِ. فَأَدْرِكُ (تَأْبِطُ شَرًّا) أَنَّ وَجُودَهُ رَهْنٌ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الصَّرَاحِ مَعَ (الغُولِ) لِيَعِيدَ لِنَفْسِهِ خُصُوبَتَهَا الْمَفْقُودَةَ. وَتَسْتَمِرُّ الْمَجَادِلَةُ حَتَّى تَكْتَمِلَ مَشْهَدِيَّةُ الْحَدَثِ:

فَقُلْتُ لَهَا: يَا أَنْظُرِي كَيْ تَرَيِ فَوَلَّيْتُ فَكُنْتُ لَهَا أَغْوَلَا

يَقِيمُ (تَأْبِطُ شَرًّا) تَفَاهُمًا لُغَوِيًّا مَعَ (الغُولِ) الَّتِي تَبْرُزُ عُنْصَرًا مِنْ عُنَاصِرِ الْخُطَابِ الشِّفَاهِيِّ؛ وَكَأَنَّهُ مَقْتَسَنٌ بِأَنْثَوِيَّتِهَا، وَقَادِرٌ عَلَى التَّوَالُدِ الذَّهْنِيِّ مَعَهَا، بِوَصْفِهَا بِدِيلًا مَوْضُوعِيًّا حَسِيًّا عَنْ (سُلَيْمَى)؛ حَيْثُ يُغْرِيبُهَا وَيُقَوِّبُهَا بِقُدْرَتِهِ، وَكَفَايَتِهِ؛ وَيَسْتَمْلِكُهَا حَتَّى تَنْظُرَ فَعْلُهُ مَعَهَا. فَإِذَا بِالْغُولِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ - تَرْفُضُهُ شُكْلًا وَمُضْمُونًا، وَتَأْنِفُ مِنْهُ، وَتَسْتَخَفُّ بِهِ، وَتَسْتَهْجِنُ قَوْلَهُ، وَتَعْلَنُ عِزَّهُ - كَمَا أَعْلَنَتْهُ سُلَيْمَى لَجَارَاتِهَا - فَيُوجِهُ (تَأْبِطُ شَرًّا) الْقَوْلَ بِالْقَتْلِ:

فَمَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنْ جَارَتِي فَإِنَّ لَهَا بِاللَّوَى مَنَزَلَا

وَكَنْتُ إِذَا مَا هَمَمْتُ اعْتَزَمْتُ وَأَخْزَرْتُ إِذَا قُلْتُ أَنْ أَفْعَلَا

إِنَّ (تَأْبِطُ شَرًّا) يُوَثِّقُ حَدَثَ اللَّقَاءِ، وَالصَّرَاحِ، وَالْقَتْلِ، بِسُؤَالٍ مَتَخِيلٍ يَفْتَرِضُهُ وَعِيَهُ أَنِيًّا؛ حَتَّى يُبَيِّنَ لِنَفْسِهِ الْهَائِجَةَ جَوَابًا حَوَارِيًّا -شُعْرِيًّا- يَقْتَضِي بِهِ الْمُبَادَرَةَ الثَّائِرَةَ؛ وَيَعْرِفُ مِنْ خِلَالِهِ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَسْأَلَ عَنْ جَارَتِهِ (الغُولِ) سِوَالًا مَنْطَقِيًّا - حَقِيقِيًّا؛ لِأَنَّ (الغُولَ) حَيَوَانَ خِرَافِي خَلَقَهُ خَيَالُ شَاعِرٍ يَسْطُو





ويُظهرُ (تَأَبَّطُ شَرًّا) لقاءَ الغولِ بِمَشَاجِرَ، وَقَتْلَ بَنِيْسٍ مَوْقُوتٍ فِي غِيَابِ الصَّحْرَاءِ، وَمَجَاهِلِ الْكُتُبَانِ الرَّمْلِيَّةِ الَّتِي يَسْبِرُ أَغْوَارَهَا، وَلَا يَضِلُّ سُرَاهُ فِيهَا، وَالتِّي تَخْتَرِقُهَا (الْغُولُ) فِي اللَّيَالِي الدَّهْمَاءِ مُسْرَعَةً كَالرَّيْحِ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، وَفِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ الْهَيَاجِ وَالْهَيْجَانِ بِدَلَالَةِ الْفَعْلِ الْمُضَارِعِ (تَهْوِي) الَّذِي يَعْتَصِرُ الشَّدَّةَ، وَالْوَحْشِيَّةَ، وَالصَّلَابَةَ مَعَ الضَّلَالَةِ، وَالَّذِي يَحْمِلُ دَلَالَةً مُتَصَارِعَةً مَعَ الْبَدَايَاتِ الشَّائِنَةِ وَالنَّهَايَاتِ الْمُتَقَالَّةِ؛ لِنَتَشْطِيْ عُنَاصِرِ الصَّدْمَةِ وَالْمَفَاجَأَةِ فِي بَقْعَةٍ مَكَانِيَّةٍ مُفْتَوَحَةٍ الْحُدُودِ، وَتَتَغَلَّغَلُ فِي سِيَاقَاتِ الزَّمَنِ الدَّائِرِيِّ فَتُسَكِّنُهُ؛ وَلَا تَسْتَكِينُ فِيهِ.

وَتَجَذِرُ فِي الْقَصِّ شَخْصِيَّةَ (المَبْلَغِ)، وَتَسْقُطُ مِنْ أَجْرَاجِ الْخِيَالِ إِلَى أَجْرَاجِ السُّرْدِ؛ لِتَنْتَقِلَ بِاللُّغَةِ النَّاصِئَةِ مِنَ الزَّاوِيَةِ الْمَظْلَمَةِ الَّتِي تَتَفَرَّقُ فِيهَا إِلَى مَقُومَاتِ الْوُجُودِ، وَمَحْفَرَاتِ التَّوْبِيرِ، إِلَى الرُّكْنِ الْمَعْرِفِيِّ الَّذِي تَتَصَفَّى فِيهِ بِالْخَبِيرَةِ، وَالْدَّرَايَةِ، وَالرَّوَايَةِ؛ لِإِضَاءَةِ الْحَدِثِ بِالْدَّهْشَةِ فِي سَاحَةِ فَرِيدَةٍ. وَكَأَنَّ (المَبْلَغَ) يَدْعُو (فَتْيَانِ فَهْمٍ) لِنَصْرَةِ (تَأْطِطِ شَرًّا)، وَنَجْدَتِهِ؟ أَوْ لِمَشَارَكَتِهِ فِي فِصْلِ مِنْ فِصُولِ الْمَنَازِلَةِ الْمَشْرُوعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (الْغُولِ ← بَنِي هُذَيْلِ).

وَيَتَحَدَّثُ (تَأْبِطُ شَرًّا) مع (الغول) بخطاب مؤنسٍ، وَمَنْ فِكْرِيْ - منطقي، يَقْتَرِضُ فِيهِ قَدْرَتَهَا عَلَى الْفَهْمِ اللَّغَوِيِّ، وَالْحَوَارِ الثَّنَائِي فِي سِيَاقِ الْمَعَادِلَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ؛ عَارِضًا رُؤْيَتَهُ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْوَفَاقِ السَّلَوَكِيِّ، وَالْوَنَامِ الْوَاقِعِيِّ يَنْبِذُ الْخُصُومَةَ الطَّارِئَةَ، وَالْمُضَادَّةَ الْقَاتِلَةَ، وَالْجَنُوحَ إِلَى السَّلَامِ؛ رَغْبَةً فِي دَيْمُومَةِ الْحَيَاةِ. وَيَعْرِضُ فِي (مَفَاوِضَاتِهِ) مَعَهَا تَشَابُهَ الْمُؤَثَّرَاتِ الَّتِي تَحْتَوِيهِمَا مَعًا، وَتَشَابُهَ الْأَهْدَافِ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا - مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ - فِي بَدَاهَةِ خَاطِرَةِ لِلْمَهَادَنَةِ، أَوْ الْمَخَادَعَةِ؛ حَتَّى يَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهُ الْلَاهِئَةُ مِنْ هَوْلِ الْمَنْظَرِ، وَسَوْءِ الْمُنْقَلَبِ:

فَقُلْتُ لَهَا: كَلَانَا نَضُّوْا نِيْنَ

إِنْ (تَأْبَطُ شَرًّا) لَا يَسْتَعْدِي (الغول)، وَلَا يَتَصَاغَرُ أَمَامَهَا؛ وَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا بِالْشَّرِّ وَالْعَدَاوَةِ، وَلَا يَحْرُكُ فِي أَضْلَعِهَا رِغَابٌ (الْقَتْل). بَلْ يَرِغِبُ فِي هَدُوتِهَا، وَهُوَ يَخَاطِبُهَا بِأَنَاءٍ تَسْتَنْدُ إِلَى تَوَازُنِ فِي الذِّهْنِ وَالْعَقْلِ؟ وَيَنْفِي عَنْهَا — أَنْيًّا — الْمِبَادَأَ بِالْبَغْيِ وَالضَّلَالَةَ؛ وَيَشْرِكُهَا مَعَهُ فِي الْحَالِ وَالصِّفَةِ؛ فَكِلَاهُمَا مَهْزُولٌ مُجْهَدٌ أَعْيَاءُ طَوِيلِ السَّفَرِ، وَكَثْرَةُ التَّرْحَالِ، وَأَتَعَبَتِ الْعُلُوتُ. إِذْ حَوْلَ (تَأْبَطُ شَرًّا) الْغُولُ مِنْ كَائِنٍ خَيَالِيٍّ إِلَى وَاقِعٍ وَكَيَانٍ حَيٍّ يَدْفَعُنَا إِلَى اسْتِكْنَاهِ الْعَلَاقَةِ الْمُتَلَازِمَةِ بَيْنَهُمَا تَلَازُمِ التَّغْيِيرِ وَالثَّبَاتِ، وَالسَّلْبِ وَالْإِجَابِ.

وبعد أن يدخل (تأبط شراً) في إهاب الغول، ويجسد تحولاته الرؤيوية بالقول والفعل معاً؛ يشعرنا بدنو حدث مكروه — غير مرغوب فيه — يمهّد له بفعل الأمر المعطل (خلي). وندرّك بدهاء أن (الغول) تعرّض سبيله، ولن تخلي له مكانه، وكأن (هذيلاً) بأشدائنا تطلبه، وتقطع عليه أسفاره؛ وترغبه قتيلاً، أو أسيراً؛ وترهبه طليقاً أو شريداً. فإذا بالحدث يتججّر، ويدخل في بؤرة الصراع المادي الذي تقوده الغول قيادة تمحو الوجود المائل أمامها؟ وتشتت بقايا الجسد في برهة تستوجب فعلاً مضاداً ينهض به (تأبط شراً)، ويرفض فناءه، وشتات فكره، وحرّيته بالقتل المنظم، ويدعو إلى منازلة/ مبارزة يدفع بها عن نفسه هوان القيد، وذلل الفرار، وعاقبة الطعن في الأعجاز والظهور:



فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولِ يَمَانِي

فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرْتُ صَارِعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

إنَّ الفعلَ (شَدَّتْ) يُوصَلُ الوحشيةَ في الغول؛ ويكشفها عدوانيةَ السلوكِ تنهياً للهجوم، وتحملُ إصراراً في الحرب، ويظهرها باديةً بدايةً ممقوتةً بالقتيل؛ حتى نتعاطفَ مع (تَأْبَطُ شراً) في صراعه المشروعِ معها، ونقبَلُ ردَّ فعله المباحِ في معركةِ الحياةِ والموتِ. وتتخللُ الفعلُ (أهوى) قيمةً ذهنيةً — وجوديةً يدافعُ بها (تَأْبَطُ شراً) عن حقِّه في البقاءِ الآمنِ، وعن نظريتهِ في حريةِ الحركةِ، وواقعيةِ التعبيرِ، ليمارسَ بالفعلِ (أضربها) طقساً من طقوسِ شخصيتهِ المتمردةِ ويطردُ الخوفَ، والقلقَ، والحيرةَ من ذاتهِ المكبوتةِ؛ وكأنه يقتنصُ — في أوانِ التجلّي والحلول — عدوهُ الأزلِي الذي يناديه إليه؛ ويهرولُ حوَالِيهِ؛ وهو شبحُ الموتِ. وتُشكّلُ الأفعالُ (شَدَّتْ، أهوى، أضربها) نسقاً ثلاثياً يبدأ بمشهد؛ وينتهي بسواه من خلال المواجهةِ الضارمةِ بين الأنا والآخر/ الغول. ويرسمُ الفعلانِ (شَدَّتْ ← خَرْتُ) دائرةً مغلقةً تتقاطعُ فيها المقدماتُ مع الخواتيمِ.

والمدَّهشُ أَنَّ (تَأْبَطُ شراً) يتأبَّطُ سَيْفَهُ، ويقاثلُ به الغولَ في صراعه الشعريِّ معها في النصين معاً (المرهف الصارم ← المصقول اليماني). ولم يستخدِمْ السَّهْمَ أو الرَّمْحَ؛ وكأنه في مبارزةٍ نهائيةٍ هيمنَ فيها الشعورُ بالرهبةِ والخوفِ عليه؛ فقاده إليْ نشدانِ الخلاصِ والأمانِ بالقتلِ في صورةٍ بالغةٍ الرمزيةِ للسقوطِ المروعِ الذي يفتنُ فيه الموتُ بالفناء. ويُصورُ الفعلُ (خَرْتُ) سقوطاً أسطورياً لوهمِ يَسْتَوِطِنُ الأزمنةَ، والأدمغةَ معاً؛ ويُصدرُ حكماً بالموتِ الأبديِّ على كائنٍ مجهولٍ، وفكرةٍ غامضةٍ تتجسَّدُ في (الغول ← الخوف ← بني هذيل).

ويتغيَّرُ مسارُ الحدثِ فجأةً. وتتنازلُ (الغول) عن الصراعِ المادي، وتطلبُ الحوارَ وسيلةً للحسمِ، وترغبُ في هدنةٍ تستجمَعُ بها قواها، وتتنظَرُ للخصمِ برويةٍ جديدةٍ:

فَقَالَتْ: عُدْ، فَقُلْتُ لَهَا رَوِيداً مَكَانَكَ إِنْنِي ثَبَتُ الْجَنَانَ

وهنا حدثت مبادلةٌ في وظيفةِ السارد، ومكانه، وشخصيته. إذ تولَّتْ (الغول) السردَ، ونظمتُ الخطابَ بحوارٍ ثنائيٍّ تحوَّلَ به (تَأْبَطُ شراً) من (سَارِدٍ — رَاوٍ — مُتَكَلِّمٍ) إلى (مُخَاطَبٍ — مَرُويٍّ له). ولكنه لم يقبلَ بديمومةِ هذه الصيرورة؛ فعادَ مسرعاً إلى شخصيةِ (الراوي/ المتكلم) داخل السردِ رافضاً مقولةَ (تبادل الأمكنة والأدوار) في البناءِ الدرامي؛ ليدبِّمَ المؤثراتِ النفسيةِ المصحوبةَ بالصورةِ والحركة. وكأننا نلاحظُ وجودَ نوعٍ من الترابطِ الطقوسي في الأداءِ بين التقمُّصِ والتخفي، والحلولِ والتجسيدِ في معادلةٍ ينهضُ بها الحوارُ، وتخطيها اللغة:

فَلَمْ أَنْفَكْ مَتَكُنّاً عَلَيْهَا لَأَنْظُرَ مُضْطَبِحاً مَاذَا أَتَانِي

إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسِ قَبِيحٍ كَرَأْسِ الْهَرِّ مُشْفَقُوقِ اللِّسَانِ

وساقا مُخَدَجٍ وشَواةَ كلبٍ وثوبٌ من عِباءٍ، أو شَنانٍ

لقد صرَّحَ (تأبَّطُ شراً) في المطلع بمعرفته الموثقة بالغول من حيث الشكل، والسلوك والصفة. وبعد صراعٍ موصول بالموت قتلاً مع الآخر؛ يُعلنُ جهَّله — لحظوياً — بما يواجه. وكان البداية اللغوية قد شكَّلت بعد أن أزلت المعرفة أضغاث الجهل في سياق تراجيديٍّ تستقرُّ فيه البداية في أعقاب النهاية.... ويبدو من الظهور الشعري للغول أن الشاعر يقصدُ إلى تأجيح عناصر الصدمة، وتأزيم الشعور بالدهشة والترهيب عند المتلقي؛ ليعطي لطاقته المواراة شحنات وصفية في ميدان تصويريٍّ بجسمٍ؛ ويَهْوُلُ فيه مشهدية (الغول) بصورٍ حسيةٍ مخيفة، ومناظرٍ رؤيويةٍ مكروهة، ومقابلاتٍ تشبيهيةٍ تقربُ الموصوف إلى الذهن.

وندرُكٌ من السرد أن (الصِّراع) سينتهي بقتل (الغول) بوصفها رمزاً من رموز الشر، والظلم، والطغيان. فيأتي (تأبَّطُ شراً) على وصف رأسها بالقبيح تشبيهاً له برأس الهرِّ. ويُشَبَّه ساقاها بساقي طفلٍ كسبح لا تستقيم حركته، ولا تستقر قدماه. ويجعل قحف رأسها شبيهاً بالكلب. ويصورُ جسدها مكسوراً بثوب من أوبارٍ كثنة وكثيفة داكنة اللون طويلة الأطراف معقودة الأوساط. وكأنني به يُنفَرُ من منظرها، وكأنها (غوريللا)؛ حتَّى يُثَبِّتَ لنفسه رباطة الجأش، وصوابَ الرؤيا؛ ويُقنِعَ القارئ بأن القبح والنسوة والوحشية من مبررات بقاء (الغول)، وعامل من عوامل القناء والحجب، وسطوة الموت؛ كاشفاً لنا أغوارَ تجربةٍ خرج بها من عالم المجهول إلى عالم المعلوم؛ ليثيرَ في نفوسنا مشاعرَ القلق، والترقب، والمغامرة؛ ويجعلنا نحسُّ بوجه من وجوه النقص في عالمنا المرئي بفقدان الغول... وهذه المفارقات الحادة بين عالم البداية وعالم النهاية يدلُّ على الإحباط واليأس، والقناتمة في جانب، ويحملُ قدراً من الحيوة، ومضاتٍ إيقاعيةٍ في جانبٍ آخر قياساً على حجم التحولات في الحاضر، وإدراكِ علاماته وعنفه.

\*\*\*\*\*

إنَّ الفضاءَ الذي شكَّله تأبَّطُ شراً، والذي تحيا فيه (الغول)، فضاءٌ مزدوجٌ (واقعيٌّ — خياليٌّ) (مكانيٌّ — زمنيٌّ)؛ وحركتهما داخلَ الفضاء دليل حضوره الجسدي وحضور الغول المتخيَّل في لحظة توترٍ وتفاعلٍ مجازيٍّ يلتئم فيها التناقضُ والتوحدُ في بنية لغوية، ووحدة موضوعية متكاملة تعنصرُ المخاضات النفسية التي تمرُّ بها الذاتُ الشاعرة بنبرة موسيقية متمردة، وحسٍّ مُرهَفٍ يثيرُ الدهشة والمتعة في لحظات الرفض، والتحرر التي تتجاوزُ العاطفة الآنيَّة الضائعة، والتي ينشطُ فيها العقلُ الباطنُ في أثناء الصراع الشعري مع (الغول)....

\*\*\*

## المصادر والمراجع:

- |  |   |
|--|---|
| <p>(3) الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، دار الثقافة، بيروت، 1969م، ج2.</p> <p>(4) معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، ودار بيروت، ج3.</p> | <p>(1) الأغاني، للأصفهاني، طبعة بولاق (مصورة)، بيروت 1390هـ - 1970م، ج18.</p> <p>(2) شعر تأبط شرأ، دراسة وتحقيق: سليمان داود القره غولي وجبار تعبان جاسم، مطبعة الآداب، النجف - العراق، 1973.</p> |
|--|---|

